راهن المرجعية الفلسفية لإصلاح المنظومة التربوية في الجزائر (جون ديوي نموذجا)

يحياوي بختة

باحثة في الدكتوراه،جامعة مستغانم

الملخص:

أصبح التعليم اليوم عملية ضرورية في حياة الإنسان كغيره من العمليات التعليمية الأخرى في الحياة ولم يعد التعليم اليوم يقتصر على الجانب التعليمي فقط في المدرسة بل شمل جلّ مجالات الحياة من ثقافة، سياسة، اقتصاد، اجتماع، فكل مجال من المجالات السابقة إلاّ وله علاقة بالعملية التعليمية فالثقافة على سبيل المثال تتعلم بالاكتساب توجد في المجتمعات المتقدمة كما توجد في المتحضرة وتشمل العادات والتقاليد والمباد ئ وحتى الدين واللّغة باعتبارهما يشكلّان هوية الفرد الثقافية الخاصة بالمجتمع ما جعل تايلور يقول عنها (ذلك الكل المركب الذي يشمل العادات والتقاليد...) وهذا ما يجب أن يتعلّم، وكذا بالنسبة للمجال السياسي فهو الآخر له أسسه ونظرياته المحددة التي يعتمدها حتى يكون نظام الحكم سديدا وينعكس بالإيجاب على الفرد والمجتمع ويحقق تطوّره وازدهاره، فهو بشكل أو بآخر يخدم الفرد والمجتمع على حد سواء.

الكلمات المفتاحية: المرجعية الفلسفية؛ الإصلاح؛ المنظومة التربوية؛ الجزائر.

تمهيد:

أصبح التعليم اليوم عملية ضرورية في حياة الإنسان كغيره من العمليات التعليمية الأخرى في الحياة ولم يعد التعليم اليوم يقتصر على الجانب التعليمي فقط في المدرسة بل شمل جلّ مجالات الحياة من ثقافة ، سياسة ، اقتصاد ، اجتماع ، فكل مجال من المجالات السابقة إلاّ وله علاقة بالعملية التعليمية فالثقافة على سبيل المثال تتعلم بالاكتساب توجد في المجتمعات المتقدمة كما توجد في المتحضرة وتشمل العادات والتقاليد والمباد ئ وحتى الدين واللّغة باعتبارهما يشكلّان هوية الفرد الثقافية الخاصة بالمجتمع ما جعل تايلور يقول عنها (ذلك الكل المركب الذي يشمل العادات والتقاليد...) وهذا ما يجب أن يتعلّم ، وكذا بالنسبة للمجال السياسي فهو الآخر له أسسه ونظرياته المحددة التي يعتمدها حتى يكون نظام الحكم سديدا وينعكس بالإيجاب على الفرد والمجتمع ويحقق تطوّره وازدهاره، فهو بشكل أو بآخر يخدم الفرد والمجتمع على حد سواء فهوّ الآخر يعتمد على طرق تعليمية معيّنة وكذا الأمر بالنسبة لباقي المجالات الأخرى التي تعتمد هي الآخيرة على الجانب التعليمي الذي يشكل الأساس الذي تؤسس عليه بقية المجالات الأخرى وهي تتغيّر تبعا لتغير المبدأ الأساسي المشّكل لها.

ما يمكننا قوله هو أنّ التعليم أصبح الركيزة الأساسية والمحوّل في جميع القطاعات الأخرى ، وهذا ما لوحظ في العالم وخاصة في الدوّل الغربية

المتقدمة ولتحسين الوضع أكثر وأفضل قامت هاته الدول بالقيام بإصلاحات في شتى مجالات الحياة ومن بين ما قامت به إصلاح المنظومة التربوية .

ومن بين هاته الدول الغربية الكبرى التي مسّتها سياسة الإصلاح نجد الولايات المتحدة أمريكية ممثلة في شخصية فيلسوفها جون ديوي أو كما ينعت بفيلسوف التربية نتيجة لما قام به من عمل في هذا المجال .لقد لاحظ جون ديوي النظام التربوي المعمول به في المدرسة وأستخلص نقائصه وسلبياته وهذا إن دل على شيء إنما يدل عل فشلهم في التربية مما يلزم تغييره فلجأ ديوي إلى ابتكار طرق جديدة في التدريس وهو مايعرف اليوم عندنا المقاربة بالكفاءات بدل من المقاربة بالأهداف مركزا في ذلك على عنصر أساسي ألا وهو الطفل بإعتباره اللبنية الأساسية في عملية التربية والتعليم. والمدرسة هي المختبر الذي يجب أن تنطلق من عملية التفكير في إيجاد الحلول للمشاكل التربوية في حد ذاتها والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . والجزائر هي الأخرى من بين الدوّل المتخلفة التي مسّتها عملية الإصلاح في المجال التربوي كما نجد أنّها اعتمدت المقاربة بالكفاءات في النظام الجديد (ل. م. د)بدلاً من المقاربة بالأهداف التي كانت من قبل معتمدة في النظام الكلاسيكي .

اعتمادا على ماسبق نطرح الإشكال التالي : **هل يمكن اعتبار فلسفة الإصلاح التربوية الديوية كمرجعية لإصلاح المنظومة التربوية في الجزائر؟ وهل طريقة التعلّم بالكفاءات في الجزائر هي نفسها فلسفة جون ديوي ؟**

وهل حققت هاته الآخيرة نجاحاً في بلادنا بالقدر الذي حققته في بلدها الأصلي ؟.

"والبرغماتية فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا، فهي فلسفة لا ترجع في تاريخها إلى أكثر من قرن من الزمان.وهي ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها"[1] هذا ما يؤكد أنّ سكانها ليس كلّهم أصلين وإنّما هم مزيج مع قارة أو قارات أخرى ،جاءوا إلى هذا العالم الجديد لأغراض وغايات معيّنة، بالنسبة للمهاجرين الذين نزحوا من أوروبا نحو أمريكا بغية الاعتماد على أنفسهم في أعمالهم من أجل السعي الدءوب إلى تحسين طرق عيشهم لأجل توفير أمنهم واستقرارهم بسبب ماعانوه في بلدانهم الأصلية قبل انتقالهم إلى العالم الجديد (الولايات المتحدة الأمريكية).

. الفلسفة البرغماتية :إنّ المعنى الاصطلاحي لكلمة "براغماتية "فهو بصورة محددة يطلق على أحد المذاهب الفلسفية التي ظهرت في أمريكا على يد تشارلس سندرس بيرس(1878) وتطور على يد وليام جيمس و جون ديوي ،يقرر هذا المذهب أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح ،فالفكرة الصحيحة هي الفكرة التي تحققها التجربة، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية" [2]. تبقي الفلسفة البرغماتية بهذا الشكل على

[1]. فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي 11. جون د يوي . دار المعارف، القاهرة، ط3، 1968، ص82

[2]– علي عبد الهادي المرهج، الفلسفة البراغماتية ، دار الكتب العلمية :ط1 سنة 2008، ص17.

أنّها إتجاه فكري كباقي الاتجاهات الفكرية الأخرى ارتبط ظهوره بالولايات المتحدة الأمريكية وتكمن فكرته الأساسية على أساس ما تحققه التجارب التي قادته إلى العمل الناجح و هذا يعني أن قيمة الفعل مرتبطة بنتائجه المتحققة.

أما جون ديوي فيؤكد على أن: "أن لفظ براغماتي لا يعني إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتاجها "أو كما قال عنها في موضع آخر: "البرغماتية كاتجاه يمثل ما وفق بيرس في تسميته"العادة المخبرية للذهن "وقد امتدت لشمل كل ميدان يمكن للبحث أن يثمر فيه و يعطي النتائج. يتبين إذن من خلال النصين المذكورين أن مدلول البراغماتية يتمثل في كونها قاعدة أو عادة معملية للذهن بالإشارة إلى صفتها المنهجية، وباعتبارها طريقة للتأكد والبحث والتثبت من المفاهيم وإخضاعها لمحك الاختبار [3]. وعلى هذا الأساس فإن الفيلسوف البرغماتي جون ديوي يرى أنّه طريقة للتأكد من صحة الأفكار التي يمكن أن يستفيد منها الإنسان في شتى مجالات الحياة والتي عن طريق البحث يمكن الاستفادة من نتائجها في الواقع العملي.فما

---

* المدرسة المعملية la borатory ولو أنّ أسمها الذي جرى على ألسنة الناس (مدرسة ديوي) وسميت المدرسة معملاً لأنها كانت بالإضافة إلى تعليم الناس الفلسفة وعلم النفس واللتربية وكمعامل للطبيعة والكمياء، ولم يكن الغرض منها أن تكون مدرسة تجريبية أو عملية أو تقدمية أو عملية كما توصف المدارس الحديثة اليوم، أحمد فؤاد الأهواني جون ديوي، دار المعارف، القاهرة، ط 3، سنة 1986، ص26

[3] محمّد جديدي ، فلسفة الخبرة ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ط1، س2004، ص18.

هذه الفلسفة إلاّ أسلوب جديد لمواجهة الحياة ومشاكلها بالنسبة للشعب الأمريكي ،ولد ونشأ تحت ظروف ألزمت ظهوره في العالم الجديد دون غيره من بلدان العالم الأخرى. وخير تعبير عن ذلك الإصلاحات التي قام بها الفيلسوف ديوي في المدرسة والتربية.

. التربية "إنّ التربية هي الحياة وليست إعدادا للحياة" [4] .فبقى التربية هي الحياة التي يحياها الفرد وذلك أن الطفل منذ ولادته الأولى فهو يتربى وينمو لهذا لايمكن بتر وفصل التربية عن الحياة أو الحياة عن التربية.

يعرف جون ديوي التربية فيقول« أعتقد: أن كل تربية تبدأ عن طريق مشاركة الفرد في الشعور الاجتماعي للجنس البشري. وهذه المشاركة تبدأ في الغالب بصورة لاشعورية منذ الولادة . وهي تشكل باستمرار قوى الفرد وتشبع شعوره وتكون عاداته، وتهذب أراءه ومبادئه، وتثير إحساساته وانفعالاته. وعن طريق هذه التربية اللاشعورية يشارك الفرد بالتدرج في الكنوز والذخائر العقلية والخلقية التي نجح المجتمع في جمعها، ويصبح وريثا للمدنية كلها» [5]. تدخل التربية إذن في المشاركة الجماعية باعتبارها سلوك حضاري يتشكل في الغالب دون وعينا في أننا نرغب في تشكلّه، فعلى أساسها تتشكل عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا وديننا التي تشكل هويتنا.وتوجهاتنا.

[4] . جون ديوي ، التربية في العصر الحديث ،تر:عبد العزيز عبد المجيد /مُحَمَّد حسين المخزنجي ، مكتبة النهضة المصرية ،الإسكندرية، س1948/1949،ص5.

[5]. جون ديوي ، التربية في العصر الحديث ،مرجع سابق، ص17.

كما أن "التربية الحقة هي التي تأتي باستخدام مطالب الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل في إثارة ميوله، وعن طريق هذه المطالب الاجتماعية يشعر الطفل بدافع له إلى العمل، متأثراً بوشائج تربطه بمجتمعه، وبدافع يخرجه من شعوره الضيّق وعمله المحدود، فيعتبر نفسه مسؤولا عن صالح المجموع الذي ينتمي إليه.وعن طريق استجابات غيره لأنواع نشاطه يتعلم ما لهذه الاستجابات من معان اجتماعية، وتنعكس قيمتها على من حوله»[6].فعلى التربية أن تتماشى مع متطلبات المجتمع كما يجب مراعاة الجانب النفسي للطفل حتى يكون قادر على توظيف ميولاته في محيطه وكما يرغب هو في ذلك.

ويلخص الدكتور فؤاد الأهواني النظرية التربوية كما جاءت في عقيدته في النقاط التالي:

1. "إن التربية ظاهرة طبيعية في الجنس البشري وبمقتضاها يصبح الفرد وريثا لما حصلته الإنسانية من حضارة.
2. تتم هذه التربية لاشعوريا، عن طريق المحاكاة بحكم وجود الفرد في المجتمع وبذلك تنتقل الحضارة من جيل إلى آخر.

[6]. المرجع نفسه، ص17.

3. التربية المقصودة تقوم على العلم بنفسية الطفل من جهة ومطالب المجتمع من جهة أخرى. فالتربية ثمرة علمين هامين هما علم النفس وعلم الاجتماع"[7].

وتبعا لذلك فإنّ ديوي يرى أنّ هناك مبادئ أخلاقية للتربية تختص بمعالجة كل من الجانب النفسي والاجتماعي فقهي هذا يقول ‹‹فإذا ما نظرنا الآن إلى السلوك من وجهة نظر هذه (أعني ، من ناحية ما يتعلق بعملية إنجازه الحالية، أو بمضمونه ،أو بقيمته الملموسة) فإن ذلك معناه أننا ننظر إليه من وجهة النظر الاجتماعية . أي، من المكان الذي يشغله، وليس ببساطة من ناحية علاقته بالشخص الذي يفعله، بل من ناحية علاقته بالموقف الحيوي جميعه الذي يدخل فيه ›› [8].فتبقى قيمة السلوك في الواقع العملي من خلال نظرتنا الاجتماعية له.

كما أنّ‹‹النظرة النفسانية للسلوك عليها أن تجيب على مشكلة الفاعلية، أي على مشكلة كيف يعمل الفرد، أما النظرة الاجتماعية فعليها أن تعالج لنا ماذا يفعل الفرد وماذا يحتاج أن يفعله، من زاوية وجهة نظر عضويته في كل أكبر منه›› [9]. فعمل الفرد ضروري وأساسية للفرد سواءا راعينا الجانب النفسي أو الاجتماعي في ذلك ومدى فاعليته."وينبغي أن يتعلم كل فرد كيف يعيش

---

[7] . أحمد فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي . جون ديوي .، مرجع سابق، ص41.

[8]. جون ديوي ، المبادئ الأخلاقية في التربية،تر: عبد الفتاح السيّد هلال، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر/الدار المصرية للتأليف والترجمة ،دط ،س1966،ص22.

[9] . جون ديوي ، المبادئ الأخلاقية في التربية، مرجع سابق ص22.

وسط هذه البيئة الحضارية التي يوجد فيها، وأن يرتفع إلى مستوى نظمها المختلفة. وهذه العملية من التعلم هي التي تسمى تربية" [10]. فالتربية هي طريقة معايشة البيئة الاجتماعي بكل ما فيها نظم.

‹‹وبظهور الديمقراطية والنهضة الصناعية الحديثة لايمكن التنبؤ بما ستكون عليه المدنية بعد عشرين سنة.ولهذا لايمكن إعداد الطفل لظروف غير معروفة على وجه الدقة...ولايمكن الوصول إلى هذا النوع من التوافق والانسجام إلاّ إذا عنينا بقوى الفرد وميوله وأذواقه. وبمعنى آخر يجب أن نسير بالتربية دائماً وفقاَ لحياة الفرد النفسية›› [11].فمراعاة الجانب التكويني لنفسية الطفل ضروري في عملية التربية.

كما يقول أيضا في هذا المجال : ‹‹أعتقد أنّ الفرد الذي يراد تربيته هو فرد اجتماعي، وأن المجتمع هو وحدة منظمة من الأفراد. فإذا ما نزعنا العنصر الاجتماعي من الطفل لم يبق منه سوى مجموعة من الغرائز والميول والقوى المجردة المعنوية، وإذا نزعنا العامل الفردي من المجتمع لم يبقى به سوى مجموعة من الناس وأفكار وقوانين لا حياة فيها. فالتربية يجب أن تبدأ بدراسة نفسية، وفهم الطفل وقواه الطبيعية وميوله وعاداته›› [12]. فليس الجانب النفسي وحده مهم في عملية التربية بل الجانب الاجتماعي هو الآخر مهم في تشكل العملية التربوية ولايمكن إهمال أحدهما بغض النظر عن الآخر.

---

[10] . أحمد فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي . جون ديوي ،المرجع السابق ، ص42.

[11] . جون ديوي ، التربية في العصر الحديث،مرجع سابق ص19.

[12] . المرجع السابق، ص19.

يرى الدكتور ول ديوارنت "أنّ أعظم كتاب له هو ‹الديمقراطية والتربية›حيث جمع فيه خطوط فلسفته وركزها حول مهمة النهوض بجيل أفضل. لقد اعترف بزعامته جميع الأساتذة والمعلمين، وتأثرت بنفوذه معظم المدارس والجامعات الأمريكية. كما أبدى نشاطا فائقاً وجهوداً كبيرة في تحديد المدارس في أنحاء مختلفة في العالم. وأمضى سنتين في الصين حاضر فيها امام المعلمين حول اصلاح التعليم. وقدم تقريراً إلى الحكومة التركية حول تحديد تنظيم المدارس الوطنية في تركيا" [13].يعود الفضل إلى الاصلاح التعليم إلى المفكر التربوي جون ديوي الذي طالب بإصلاح المدارس التركية.

. **المدرسة:** ويعرف ديوي المدرسة في مؤلفه ‹المبادئ الأخلاقية في التربية›فيقول ‹‹إن التلميذ الذي يربى هناك عضو في مجتمع، وأنه يجب استمرار تعليمه والمحافظة عليه على أساس أنّه هو هذا العضو. فمسؤولية المدرسة الأخلاقية، ومسؤولية أولئك الذين يسوسون أمورها، إنّما مردها إلى المجتمع. ذلك أنّ المدرسة في جوهرها منشأة أقامها المجتمع لتؤدي عملاً معينا بالذات. أي لتمارس وظيفة معيّنة محددة في المحافظة على حياة المجتمع وتزويده برفاهية مطردة النمو›› [14].المدرسة هي تلك المؤسسة الأخلاقية التي تؤدي دورها في تنمية ورعاية التلميذ من أجل المحافظة على الحياة العامة للمجتمع.

---

[13] . ول ديوارنت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، تر:فتح الله المشعشع ،مكتبة المعارف، بيروت،ط6، س1988،ص625.

[14] . جون ديوي، المبادئ الأخلاقية في التربية،مرجع سابق ص24ص25.

فديوي يصر على قوله بأنّ ‹‹ المدرسة نفسها عبارة عن نظام اجتماعي تمثيلي يمكن تطبيقه على مادة الدراسة في التعليم .كما أنّه يجب تطبيقه إذا كان لابد لنا من التغلب على التفرقة بين كل من العلم والأخلاق›› [15].تبقى المدرسة تمثل وحدة النظام الدراسي الذي يساهم في عملية التعلم للمجتمع ككل. وللمدرسة مهام منوطة للقيام بها باعتبارها مؤسسة اجتماعية مسؤولة عن التكفل بحياة الفرد بإعتباره عضواً فعالاً داخل المجتمع والتي يمكننا اختصارها حسب ديوي في النقاط التالية:

"يجب أن تكون ممثلة للحياة الحاضرة، الحياة الواقعية الضرورية التي يحياها الطفل في المنزل وفي البيئة المحيطة به وفي اللعب مع زملائه".كما يجب أن تبسط الحياة الاجتماعية الحاضرة وتسهلها وأن تكون صورة مصغرة لها.فالحياة الحالية معقدة لايسهل على الطفل الاتصال بها وتعرفها بدون أن يضطرب وأن يحيد ويزل. الحياة المدرسية ينبغي أن تكون استمراراً لعمل المنزل ونشاطه الذي تعوده الطفل وألفه من قبل .على المدرسة أن تعرض هذه الأعمال التي يقوم بها الطفل بحياته المنزلية أمامه، وأن تقوم بها بحيث يدرك معناها وحقيقتها شيئا فشيئا". [16] من المهام التي يجب أن تؤديها المدرسة حتى تساير أوضاع المجتمع فكان لابد من الثورة على المدرسة الكلاسيكية، فرأي جون ديوي حول تغير طرق التربية من المدرسة التقليدية إلى المدرسة الحديثة

[15] . المرجع نفسه، ص38.

[16] . جون ديوي ، التربية في العصر الحديث،مرجع سابق ص20.

فالدكتور فؤاد الأهواني "تستطيع المدرسة أن توجه الناشئة بما يجعلهم يشاركون في المستقبل في حياة الجماعة.ولتحقيق هذه الغاية يجب العدول عن التربية التقليدية التي كانت تعتمد على الكتب والتي يحفظها التلاميذ عن ظهر القلب، إلى التربية عن طريق النشاط والمشاركة الفعالة بين الطلبة حتى يحس الطفل ما يتعلمه ليس منعزلا عن الحياة بل مستمدا منها"[17].

إنّ هذا التغيّر الذي اراده الفيلسوف ديوي لأن يكون يساعد عل تنمية قدرات التلميذ وزيادة فاعليتها من خلال المشاورة الجماعية، كما تكسبه الثقة بنفسه وذلك أنّه هوّ الآخر له إمكانياته ويستطيع أن يفيد بها وحتى لايبقى فكره مجرد وعاء للتلقي فقط ويبدو الفرق واضحا من خلال تمييز ديوي بين التعليم في المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة.فقام بما يعرف بإصلاح المنظومة التربوية من خلال استحداث المدرسة الحديثة.

المدرسة التقليدية: يمكننا أن نخلص إلى مفهوم المدرسة التقليدية من خلال قول جون ديوي عندما كان يتجوّل في المدينة بحثا عن وسائل تربوية للأطفال حيث قال‹‹منذ بضع سنوات كنت أجوس خلال حوانيت الإدارات المدرسية في المدينة، علني أجد قمطرات ومقاعد موافقة تماماً من وجهات النظر ـ الفنية والصحية والتربوية لنجاحات الأطفال. ولقد وجدنا صعوبة بالغة في العثور على بغيتنا وأخيراً فاه أصحاب الحوانيت . الذي كان أكثر ذكاء من بقية التجار ـ بهذه الملاحظة ـ أخشى أن لايكون لدينا ما تريد.أنك تريد شيئا يتيح

[17] ـ أحمد فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي ـ جون ديوي ،المرجع السابق ، ص46.

للأطفال أن يعملوا عليه،في حين أن كل ما لدينا مقاعد للإنصات .الملاحظة توجز قصة التربية التقليدية›› [18]. فمن خلال هاته يتضح لنا أن المدرسة التقليدية (الكلاسيكية)كانت تعتمد على إنصات التلاميذ للأستاذ ، دون وجود شيء يتشارك فيه التلاميذ للعمل مع بعضهم البعض ويساعد على الخروج من الجو الروتيني. مما يساعد على خلق جوّ المنافسة والعمل. إنّ المدرسة يجب أن ترتبط بالحياة الواقعية وبالمجتمع حتى تحقق نجاحات للفرد والمجتمع وهذا ما يعيبه ديوي على المدرسة التقليدية بقوله‹‹ولكن المدرسة قد أفردت وعزلت عن الظروف الاعتيادية ودوافع الحياة فصارت وهي المحل الذي يرسل إليه الأطفال من أجل النظام، فتصبح فيه تحصيل الخبرة،وهي أم النظام . أصعب من تحصيلها في أي مكان آخر. ولا يكون ذلك إلاّ حين تسيطر على المدرسة صورة للضبط المدرسي التقليدي بضيقها وجمودها فتصبح في خطر من إهمال النظام العميق والواسع جداً الذي ينتج من انجاز جزء ما في عمل بناء›› [19].فيبقى نظام المدرسة التقليدية ضيّق لامجال فيه لتحصيل الخبرة ولهذا كان العزوف عنه واستبداله بنظام جديد من خلال المدرسة الحديثة.

المدرسة الحديثة: ‹‹فالشيء المهم الذي يجب أن نحتفظ به في ذهننا في ما يخص إدخال أنواع متعددة من المهن الفعالة إلى المدارس هو أن بواسطة هذه

---

[18] . رالف نوين، تر:محمّد علي العريان،قاموس جون ديوي للتربية،مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة، س1964،ص189ص190.

[19] . جون ديوي، المدرسة والمجتمع، تر:أحمد حسن الرحيم ،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978،ص40.

المهن تتجدد روح المدرسة بكاملها. وتنال فرصة لتربط نفسها بالحياة وتصبح بيئة الطفل، حيث يتعلم من العيش المباشر بدل أن تكون مجرد محل لتعليم دروس ذات صلة بعيدة ومجردة بحياة قد تقع في المستقبل وتنال كذلك فرصة لتصبح صورة مصغرة للمجتمع أو مجتمعا في بدء تكونه» [20]. فبناء المدرسة الحديث يكون بإدراج المهن والحرف فيها بدلا من الإنصات بالنسبة للمدرسة التقليدية فالمدرسة الحديثة تساعد التلميذ على التطبيق الواقعي كما أنّ أفراد ها يتعاونون فيما بينهم كما تتعاون خليّة مجتمع النحل والتي تقدم لنا نموذجاً لتعاون أفراد المجتمع الحقيقي والواقعي فيما بينهم. «حتى في قاعة الدرس بدأنا نتعلم أنّ التعليم الذي ينمي الذكاء وينضج الخلق لايحدث عندما يكون الكتاب المقرر فقط هو صاحب القول الفصل الذي لامعقب لحكمه...وأخيراً بدأنا نفهم أن التثقيف والتوعية والاستنارة منوطة بالأخذ والعطاء وبتبادل الخبرة والأفكار» [21].إنّ هذا التغير الذي قال به الفيلسوف يتلاءم مع التجديد الذي يرغب فيه أي مجتمع من المجتمعات من أجل التطوّر المبنى على تبادل الخبرات والأفكار البناءة. وبالتالي يتم تعلّم التلميذ هنا عن طريق الخبرة الواقعية بدلاً من حصره وربطه بالكتاب فقط.

يقول ديوي في مؤلفه الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني :«وكما تبدو الأشياء اعتاد الناس استغلال العمل الحاضر في سبيل« الغايات»المستقبلة لدرجة أنّ

[20] . جون ديوي ، المدرسة والمجتمع، مرجع سابق ، ص40، ص41.

[21]. رالف نوين، تر:محمّد علي العريان، قاموس جون ديوي للتربية،مرجع سابق، صص 189-197.

الحقائق المتعلقة بتقدير مدى إمكانية إنقاص الاحتمالات المستقبلة لم تعرف بعد ، وما يفعله الإنسان يحدد كلا من سيطرته المباشرة ومسؤوليته»»[22].

ولتوضيح دور الحاضر في بناء المستقبل المتغيّر يذهب ديوي إلى أنّ ‹‹التربية التقليدية كما هي الآن،تخضع الحاضر الحي لمستقبل بعيد متغيّر،فالإعداد والاستعداد مفتاحها. والنتيجة الحقيقية هي نقص في الإعداد المناسب وفي التكيّف الذكي. ويتحول تعظيم المستقبل عند التطبيق إلى تبعية عمياء للتقاليد ، وحساب تقريبي يزداد ارتباكا من يوم إلى يوم، أو يتحول في بعض المشروعات التي تسمى التربية الصناعية إلى مجهود مؤكد من جانب طبقة في الاطمئنان على مستقبلها على حساب الطبقة الأخرى›› [23].صحيح أن الحاضر يبنى على المستقبل لكن البناء يكون غير مكتمل وذلك لأنّ المستقبل يبقى مجهولاً كما أنّه يخدم فئة معينة على حساب مصالح الآخرين لذا لايجب التشبث به تشبّثاً أعمى.

هذا عن نمط التربية والمدرسة التي دعا إليهما الفيلسوف ديوي في مجتمعه الأمريكي والفرق بين المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة التي دعا إليها، فيعد هذا الآخير مرجعية في التربية في أمريكا إلى جانب الفيلسوف الفرنسي جون جاك روسو.فما قام به الفيلسوف البرغماتي يعد اليوم ضرب في التربية. وإنّ ما نلاحظه اليوم والذي حصل في بلادنا اليوم في مجال النظام التربوي الجديد

---

[22] . جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني،تر: مُحَمَّد لبيب النجيحي ، مؤسسة الخانجي /مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة / نيويورك، د.ط ،س 1963، ص282ص283.

[23] . جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، مرجع سابق ص283.

فيه ما يشابه الذي حصل في المدرسة الأمريكية فإذا كانت المدرسة الأمريكية تعنى وتعلي من شأن التلميذ فكذلك عرفت المدرسة الجزائرية اليوم إبتداءاً من سنة 2006 ما يعرف بنظام (ل.م. د) بدلا من النظام الكلاسيكي وأصبح التلميذ هو الآخر عنصر فاعل في الدرس داخل القسم أكثر من قبل .وعيه نطرح الإشكال من جديد: **هل يمكن إعتبار فلسفة التربية الديوية مرجعية فلسفية للمنظومة التربوية في الجزائر؟ ماهوّ النظام الجديد المعتمد في المنظومة التربوية في الجزائر؟ وماهي مقوّمات هذا النظام التربوي الجديد ؟ وما مدى نجاحه ؟؟؟**

لقد تغيّر النظام التربوي في بلادنا كغيره من الأنظمة التي تغيرت سواء كان ذلك في بلادنا أو في بلدان أخرى من دول العالم وذلك فالنظام الجديد كان يصبو لتحقيق مردود مستقبلي معيّن تبعا للشروط والعوامل التي يرتكز عليها إنجاز وتقديم الدرس التعليمي إلى التلميذ ، فيكتسب التلميذ من هذه الطريقة التعليمية الجديدة مهارات ما كان ليكتسبها مع النظام التربوي الكلاسيكي الذي يعتمد على المقاربة بالأهداف. "إلا أن المعاينة الميدانية أثبتت بأن المعلمين، ولأسباب موضوعية عدّة يعود بعضها إلى التكوين والتأطير والبعض الآخر لظروف العمل كانوا لايولون إلاّ أهمية نسبية لهذه المقاربة، وكثيراً ما اقتصرت على الجانب الشكلي والإداري في بداية تعاملهم معها على الأقل. والنتيجة هي تراكم المعارف لدى المتعلم دون إقامة روابط بينها، مما يحول دون إمتلاكه لمنطق الإنجاز والاكتشاف، وبعبارة أخرى، يجد نفسه يتعلّم من أجل

أن يتعلّم، وليس لفعل شيء ما، أو تحليل واقع والتكيّف معه استناداً على ما تعلّمه"[24].وهذا ما يحيلنا إلى التمييز بين قديم التربية وحديثها.

إنّ الفرق بين التربية القديمة والتربية الحديثة يبدو واضحاً وذلك أن "عملية التعليم بالنسبة للنوع الأول يكون فيه (معلم/ متعلّم)بحيث تكون السلطة مطلقة للأستاذ، بينما عمليّة التعلُّم في بالنسبة للنوع الثاني تكون السلطة مشتركة بحيث يصبح المتعلّم مشاركاً م في العملية التربوية". [25] وعليه يتضح لنا أنّنا في النوع الأوّل من التربية القديمة نجد الطريقة الأولى وهي االتعليم بالأهداف أمَّا في النوع الثاني من التربية نلمس ما يعرف اليوم بطريقة التعلُّم بالكفاءات. فالتعليم يقوم على أساس حشو المعارف في رأس التلميذ فهو لايفكر ،يبقى مجرد أداة لاقطة للمعارف واستقبالها. نمط لايكوّن يقوم على أساس حشو المعارف.

"فلو قارنا بين الطريقتين على سبيل المثال في تقديم مادة الفلسفة لوجدنا أنّ:

الطريقة الكلاسيكية: تقوم على العناصرالتالية:

. التكوين.

---

[24] . حسين بن عبد السلام،فلسفة التعلم بالعمل عند جون ديوي وأهميتها في إستراتجية الإصلاح التربوي الجديد في الجزائر،مذكرة لنيل شهادة الماجيستيرفي الفلسفة، إشراف عطاء الله زرارقة، س2008/2007، ص91.

[25] . الأستاذ حمادي السايح، محاضرة :من التعليم بالأهداف إلى التعلُّم بالكفاءات ، مقياس تعليمية الفلسفة للسنة الثانية ماستر ، س2012،2013.

. الفلسفة.

. الغاية (الهدف).

الطريقة الحديثة: تقوم على العناصر التالية:

. التكوّن .

. التفلسف.

. الكفاءة."[26]

فتبقى العملية التعليمية في الطريقة الأولى للمعلّم السلطة الأولى وذلك بتقديم معارف المادة ،بينما المتعلّم لاسلطة له وإنما هوّ مجرد وعاء لحشو المعلومات.لها بعد اقتصادي ، أما الطريقة الثانية فلها أهدف معرفية وذلك بتحصيل المعارف وأهداف إجرائية كيف تقدرتوظيفها.

ويمكننا إختصار وإيجاز المسار الذي مرت به المنظومة التربوية ف انتقلها من المقاربة بالأهداف إلى المقاربة بالكفاءات في الجدول التالي إذا إتفقنا على أنّ المنظومة التربوية حقا طرأ عليها تغيير في طريقة التدريس وذلك مايعني أنّها مرت بمراحل تضمّنت كل مرحلة جيل.حسب ماوضحه الأستاذ حسين بن عبد السلام في رسالته الموسومة ب "فلسفة التعلم بالعمل عند جون ديوي وأهميتها في إستراتجية الإصلاح التربوي الجديد في الجزائر."

[26] . الأستاذ حمادي السايح، محاضرة :من التعليم بالأهداف إلى التعلُّم بالكفاءات2006 .2007 ، مرجع سابق.

بيداغوجياالمحتويات (التقليدية)	بيداغوجياالأهداف(الجيل1)	بيداغوجياالمشروعات(الجيل2)
. نقل المعرفة من المعلم إلى المتعلّم.	. أهداف سلوكية قريبة المدى	. مقاربة وظيفية بالسعي وراء تكيف المتعلم مع المحيط.
. اعتماد تام على المقرر	. تعتمد ثلاثة مبادئ: العقلنة والفعالية والمردودية.	. اعتماد الطرق النشيطة في التكوين(حل المشكلات والعمل في مجموعات).
. مناهج متنافرة.	. مناهج مجزأة.	. مناهج متضافرة.

وفي الخلاصة، يوجد بين مفهوم الهدف ومفهوم الكفاءة،في آن واحد،انفصال واستمرار، ويؤكد الاتجاه الحالي للبرامج المدرسية على مفهوم الكفاءة ويرمي إلى دعوة المعلمين إلى عدم التدريس بطريقة حرفية جامدة تجزئ المعارف والمهارات، بل تحثّهم على تصور مواقف تعليمية موجهة نحو حلّ المشكلات أو إنجاز المشاريع الذي يستدعي الدّمج بين هذه الرباعية :المعارف savoirs والمهارات savoir-faire والقدرات savoir-être والاتجاهات) savoir-devenir"[27] .يتحقق هذا في حالة اعتمادنا على المقاربة بالكفاءات وهذا ماتطرقنا إليه سابقا مع التربية الحديثة التي كان يريدها جون ديوي اذ رأى في هاته الطريقة الجديدة(المقاربة بالكفاءات) تساعد التلميذ على تنمية قدراته العقلية والفكرية وذلك بإكساب الخبرة التي تمكنه من تنمية ذكاءه وربطه بالواقع التطبيقي العملي الاجتماعي وحتى لايبقى محصورا في قاعة الدرس فقط.وهو ما يسمى بالإصلاح التربوي.

[27] . حسين بن عبد السلام، ،مذكرة لنيل شهادة الماجيستيرفي الفلسفة، مرجع سابق، ص97.

ركّز الإصلاح التربوي الجديد إذن على طريقة التعلّم بالكفاءات التي تعود بالنفع والفائدة على الفرد والمجتمع.

لكن تبقى حقيقة ما يمكننا قوله عن منظومة الفكر الجزائري أنّها تبقى في رأيي مجرّد هيئة مقلّدة للمناهج التربوية الغربية فالإنسان يبقى إن بيئته التى ربى وترعرع فيها والفكر هو وليد مجتمعه وزمانه بعوامله والظروف التي أدت إلى ظهوره و قيامه، وهذا ما يعني أنّ الفيلسوف جون ديوي نجح فعلا في التأثير تربويا على مجتمعات أخرى فنجد الكثير من البلدان العربية تضع ديوي الفيلسوف على رأس قائمة فلاسفة التربية وتدرّسه في برامجها ومقاييسها.

كما يمكننا القول أنّ طريقته التربوية الجديدة (المقاربة بالكفاءات) حققت نجاعتها في مجتمعه بالثورة على النظام التعليمي الكلاسيكي الذي يعتمد بالدرجة الأولى على حشو عقل التلميذ بالمعلومات حيث يقول ديوي في هذا السياق حيث لاتعطي الحرية للتلميذ لأن يبدع خارج إطار القسم" وهذا القصور في ـ رأيي ـ يبدو أنه يؤثر في كلا عنصري المدرسة: المعلم والطالب، إذ بالنسبة إلى الإثنين تخلفت المدرسة عن الحركة الاجتماعية المعاصرة العامة، وكثيراً من دواعي السخط والتبرم وأسباب الصراع والإخفاق وخيبة الأمل مردها إلى التباين في نظام المدرسة غير الديمقراطي نسبياً بتأثيره وفعاليته في عقل كلا المعلم والطالب، وبين امتداد وشمول المبدأ الديمقراطي خارج أبواب المدرسة".[28] فقد أثر المجال إيجابياً على التلاميذ خارج المدرسة حيث ساهم

[28] . رالف ن.وين ،قاموس جون ديوي للتربية،، تر:مُحَمَّد علي العريان،مرجع سابق ص190ص191.

ذلك في تنمية ذكائهم إذ استطاع التلاميذ أن يقيموا علاقة الربط بين الدرس النظري والواقع التطبيقي والاجتماعي للعمل في الحياة حتى لا تبقى الأفكار التي أخذها التلميذ مجردات .وفي هذا يقول ديوي"وهذه حقيقة أساسية ومنها تنبعث طرق بناء منتظمة ففي النظام الصناعي الذي مر بنا وصفه، نجد أن الطفل يشارك في العمل لا من أجل المشاركة المجردة، ولكن من أجل الإنتاج، وأن النتائج التربوية التي يحصل عليها حقيقة، ومع ذلك فهي عرضية واعتمادية. ولكن في المدارس نجد أن المهن المتبعة متحررة من الضيق الاقتصادي، فالهدف ليس القيمة الاقتصادية ولكن تنمية القوة الاجتماعية وبعد النظر". [29] فإذا كان ديوي بإعتباره معلما في المدرسة الغربية الأمريكية ربط المدرسة وعملية التعلم بتنمية القوة الاجتماعية وكسب الخبرات فماذا عن التغيير الذي حدث في المنظومة التربوية في الجزائر ؟ فلا يمكننا إعتبار هذا الأخير إلا تغيراّ في الطريقة وإعادة في البرامج أو بالأحرى لايمكننا عّه إلا تقليداً لمنظومات تربوية غربية بحيث لايوجد أي ربط أو صلة للدروس بالواقع بل تبقى مجرد مجردات وحشو رأس التلميذ بالمعلومات .

ففي بعض التخصصات فقط يكون هناك تربص ، ولا يكون هذا الأخير إلاّ في السنة الأخيرة للتخرج من المرحلة الجامعية ،وتكون الفترة المخصصة لذلك وجيزة جداّ ولاتسمح لتزوّد الطالب بالقدر الكافي من الخبرة التي تؤهله للولوج في سوق العمل فيما بعد، بل وفي كثير من الأحيان ما تختم فقط دفاتر

[29] . جون ديوي المدرسة والمجتمع، مرجع سابق ص41.

التربصات دون إجراء التربص من طرف مدراء المؤسسات من أجل الحصول على الشهادة فقط خاصة في التخصصات الأدبية المهشمة .فأين هي تنمية القدورات الاجتماعية المتعلم وأين تبدأ في منظومتنا التربوية ومتى تبدأ.فهي تبدأ في ختام العملية التربوية ولا تتطور معه.

تبقى المقاربة بالكفاءات قائمة كنظام تربوي جديد ولها سلبياتها وايجابياتها كغيرها من الأنظمة الأخرى في حقول أخرى،يمكننا عد إيجابياتها كالتالي:

. التركيز على المتعلّم وذلك بإشراكه في تفعيل الدرس.

. تنمية قدرات التلميذ.

. تمييز الفوارق بين التلاميذ من خلال كفاءاتهم وإمكاناتهم الفكرية.(العمل في شكل أفواج).للقيام بحل المشكلات .وكذا إنجاز مشاريع.

. الربط المباشر بين التلميذ والواقع.

الغاية المستقبلية المتوخاة من وراء ذلك.(توظيف المعارف في حل مشكلاتهم وحياتهم اليومية).

أما سلبياتها فهي:

. البرنامج المسطر من قبل الوزارة مكثّف.(إذا راعين الإضرابات التي أصبحت تهدد المدرسة الجزائرية كل سنة).

.كثيراً ما يعتمد المعلمين على الطريقة التعليمية التلقينية.

. الحصص المطلوبة في اليوم كثيرة.

. وقت الحصة لايكفي للإشراك جميع تلاميذ القسم في الدرس، والاستماع لمحاولاتهم وتدخلاتهم وتصويبها وتوجيهها لكثرة عدد التلاميذ في القسم.

. لاربط للدرس بالواقع الذي يعيشه التلميذ (الطفل الذي يسكن في أقصى جنوب الصحراء والدرس يدور حول زرقة البحر وجماله...).

. المدرسة الجزائرية تفتقر لوسائل ومواد العمل اللازمة من أدوات تعليمية وأجهزة لتوسيع الدروس وزيادة عملية الفهم.